١٠ - فصل

ذكر خلافة إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد[١]

هو ثامن خلفاء بنى العباس ، وكان شديد القوة ما كان فى بنى العباس مثله فى القوة والشجاعة والإقدام .

[١٣٦] قيل إنه أصبح ذات يوم وكان برده شديدا وثلجه عتيدا فلم يقدر أحد على إخراج يده ولا إمساك قوسه ، فأوتر المعتصم فى ذلك اليوم، أربعة آلاف قوس وكان يدعى المثمن .

[١٣٧] وأنشد أبو تمام حبيب بن أوس الطائى[٢] يمتدح المعتصم بن هارون الرشيد يقول :

إن جس عودا رأيت الخيل ناقصة ... كأنها من سماع هزها نغم

أو حركت يده اليمنى له وترا ... على أعاديه يغنى البوم والرخم[٣]

---

(١) محمد بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور : خليفة عباسى من أعاظم الخلفاء . بويع بالخلافة [٢١٨هـ] يوم وفاة أخيه المأمون ، وبعهد منه ، وكان بطرسوس . وهو فاتح عمورية من بلاد الروم ، وهو بانى مدينة سامراء [٢٢٢هـ] ، وهو أول من أضاف اسمه إلى اسم الله تعالى ، وكان لين العريكة رضى الخلق ، اتسع ملكه . وكان له سبعون ألف مملوك ، مدة خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر . ت[٢٢٧هـ = ٨٤١م]. انظر : ابن الأثير (٦/١٤٨-١٧٩) ، تاريخ بغداد (٣/٣٤٢) .

(٢) أبو تمام حبيب بن أوس الطائى : من أشهر شعراء العصر العباسى ، نشأ فى دمشق وتوفى فى الموصل ، مدح الخلفاء ولاسيما المعتصم . ت[٢٣٠هـ = ٨٤٥م] .

(٣) الرخم : طائر من الطيور الجارحة .

كان يقول بخلق القرآن ، وضرب على ذلك أحمد بن حنبل على أن يقول ذلك فلم يقل رضى الله عنه ، وله معه كلام طويل ، فانظره فى حياة الحيوان[1] .

[١٣٨] ومن لطائف الحكايات ، ما روى عن أحمد بن أبى دؤاد القاضى[2] أنه قال: جىء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيرا ، وكان قد خرج عليه . قال : فما رأيت رجلا عرض عليه الموت ، فلم يكترث[3] به سواه ، ثم دعا بالسيف والنطع . فلما مثل بين يديه نظر إليه ، فأعجبه حسنه ، وقده، ومشيه إلى الموت غير مكترث ، فأطال الفكر فيه ، ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله ، فقال : يا تميم إن كان لك عذر فأت به ؟ فقال : أما إذا أذن أميرالمؤمنين فى الكلام فإنى أقول الحمد لله الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ، ولمَّ بك شعث المسلمين ، وأخمد بك نار الباطل ، وأنار بك سبل الحق : إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب : وأيم الله لقد أعظمت الجريمة ، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك وهو أشبه بك وأليق ، ثم أنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظنى من حيث لا أتلفت

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١١٨) .

(٢) أحمد بن أبى دؤاد الإيادى : من قضاة المعتزلة ، ورأس الفتنة بالقول بخلق القرآن . وزير المعتصم ، كان من المعتصم كيحيى بن أكثم من المأمون ، ت[٢٤٠هـ-٨٥٤م].

(٣) يكترث : يبالى به .

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ عما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسل على السيف فيه ويصلت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا في سرور ونعمة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا[1]
فكم قائل لا أبعد الله داره ... وآخر حذلان يسر ويشمت[2]

قال : فبكى المعتصم ، ثم قال : إن من البيان لسحرا ، كما قال : النبي ﷺ. يا تميم كاد والله أن يسبق السيف العذل ، قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية ثم عقد له ولاية على عمله ، وأعطاه خمسين ألف دينار . انتهى من زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام .

[١٣٩] وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغني[3] قال : تطفلت تطفيلة، قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم . قيل له وكيف ذلك ؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين، قال : نعم فأمر البوابين أن يتركوني، فخرجت أتمشى في

---

(١) الردى : الهلاك .

(٢) حذلان : فرحان .

(٣) مخارق أبو المهنأ بن يحيى الحزار : إمام عصره في فن الغناء ، ومن أطيب الناس صوتا ، ت[٢٣١هـ-٨٤٥م] .انظر : الطبري (٢١/١١) .

الرصافة، وإذا بجارية كأن الشمس تشرق من جبينها ، فتبعتها ورأيت معها زنبيلا ، فوقفت على فاكهانى ، واشترت سفرجلة بدرهم ، وإنصرفت فتبعتها ، فالتفتت فرأتنى ، فقالت : يا ابن الفاعلة إلى أين ؟ قلت : خلفك يا سيدتى ، فقالت : ارجع يابن الزانية لئلا يراك أحدا فيقتلك ، فتأخرت ومشيت ، وتمشت أمامى ثم إلتفتت فرأتنى فشتمتنى شتما قبيحا ، ثم جاءت إلى دار كبيرة فدخلت فيها، وجلست أنا عند الباب ، وقد ذهب عقلى ونزلت على الشمس وكان يوما حارا ، فلم ألبث أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين .

فلما وصلا إلى الباب أذن لهما فدخلا ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعانى وجىء بالطعام فأكلنا وغسلنا أيدينا ، فقال لنا صاحب المنزل : هل لكم فى فلانة ؟ فقالوا : إن تفضلت . قال : فاستدعى بتلك الجارية ، فخرجت فإذا هى صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته فى حجرها فغنت وشربوا وطربوا وهى تلحظنى وتشك فى فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق ، فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى يدك، فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه ، قال : فاستدعيت بمدورة ، وقضيب ، وغنيت الصوت الذى قالته الجارية فقاموا إلى وقبلوا رأسى ، قال: وكان مخارق من أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا ؛ قال : ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير ، فقالوا : بالله من أنت ياسيدى ؟ فقلت : مخارق ، فقالوا : وماسبب مجيئك ؟ قلت : طفيلى ـ أصلح الله شأنكم ـ وأخبرتهم بخبرى .

فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى هذا الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت من بيعها ، قالا : نعم ، قال : هى له فقال صديقاه: علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف ، قال مخارق: فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها ، وكلما مررت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول : يا مولاتى أعيدى كلامك فتستحى منى، فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلت إلى أمير المؤمنين ، فقيل لى : إنه انتبه فطلبك فى منازل ابناء القواد فلم يجدك وتغيظ غيظا شديدا ، فدخلت عليه ويدى فى يدها ؛ فلما رآنى سبنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين لاتعجل ، وحدثته الحديث ، فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ، والله أعلم انتهى.

حكاية غريبة عن محلها

[١٤٠] **قال الأصمعى** : دعانى بعض العرب الكرام إلى قرى الطعام، فخرجت معه إلى البرية فأتوا بباطية[1] بأذنين ، وعليها السمن غارق ، فجلسنا للأكل ، وإذا بأعرابى ينسف الأرض نسفا حتى جلس من غير نداء، فجعل يأكل والسمن يسيل على كراعه[2] ؛ فقلت : لأضحكن الحاضرين عليه فقلت :

كأنك أثلة فى أرض هش ... أتاها وابل من بعد رش[3]

---

(١) بَاطِيَة : إناء من الزجاج ، والجمع بَوَاطٍ.

(٢) الكُرَاع : ما دون الركبة من مقدم الساق ، والجمع أكْرُع .

(٣) أثلة : الترات القليل . أرض هش : اللينة الضعيفة التى لا يثبت عليها شىء . وابل : المطر الشديد . رش : تفرقت .

فإلتفت إلىَّ بعين مبحلقة ، وقال لى : الكلام أنثى ، والجواب ذكر وأنت :

كأنك بعرة فى أست كبش مدلاة وذاك الكبش يمشى

فقلت له : هل تعرف شيئاً من الشعر أو ترويه ؟ فقال : كيف لا أقول الشعر وأنا أمه وأبوه ، فقلت له : إن عندى قافية تحتاج إلى غطاء ، فقال : هات ماعندك فغصت فى بحور الأشعار ، فما وجدت قافية أصعب من الواو المجزومة فقلت :

قوم بنجد قد عهدناهم سقاهم الله من النو[1]

قلت أتدرى النو ماذا ؟ فقال :

نو تلألا فى دجا ليلة حالكة مظلمة لو

فقلت له : لو ماذا ؟ فقال :

لو سار فيها فارس لإنثنى على بساط الأرض منطو

فقلت له : منطو ماذا ؟ فقال :

منطوى الكشح هضيم الحشا كالباز ينقض من الجو[2]

فقلت له : الجو ماذا ؟ فقال :

جو السماء والريح تعلو به اشتم ريح الأرض فاعلو

---

(١) النو : النجم .

(٢) الكشح من الجسم : ما بين السرة و وسط الظهر .

فقلت : فعلو ماذا ؟ فقال :

فـــاعلوا لمـــا عيـــل مـــن صبره فصـــار نحـــو القـــوم ينعـــــو

فقلت : ينعو ماذا ؟ فقال :

ينعـــو رجـــالا للفنـــا شرعت كفيـــت مـــا لاقـــوا ومـايلقوا

قال : فعلمت أنه لاشيء بعد الفناء ، ولكن أردت أن أثقل عليه فقلت له ويلقوا ماذا ؟ فقال :

إن كنـــت مـــا تفهـــم مـــا قلتـــه فـــأنت عنـــدى رجـــل بـــو

فقلت له : البو ماذا ؟ فقال :

البـــو ســـلخ قـــد حشـــى جلده يـــا ألـــف قرنـــان تقـــوم عنى أو

فقلت له : أو ماذا ؟ فقال :

أو أضـــرب الـــرأس بصوانـــة تقـــول فـــى ضربتهـــا قـــو

فخفت أن أقول له قوا ماذا فيضربنى ويكمل البيت ، فقلت له : أنت ضيفى الليلة ، فقال : لا يأبى الكرامة إلا لئيم ، فقلت : لزوجتى اصنعى لنا دجاجة ، ففعلت فأتيته بها وجئته أنا وزوجتى وابناى وابنتاى ، وقلت : له فرق يا بدوى ، فقال : الرأس للرأس وأعطانى الرأس ، وقال : الولدان جناحان لهما الجناحان ، والبنتان لهما الرجلان ، والمرأة لها العجز ، وأنا زائر لى الزور ، وأكل الدجاجة ونحن ننظر إليه ، وبتنا نتحدث .

فلما أصبحنا قلت لزوجتى : اصنعى لنا خمس دجاجات ، ففعلت وأتيته بالدجاج وقلت له : اقسم يا بدوى فقال :تريد شفعا أو وترا ؟ فقلت: إن الله وتر يحب الوتر ، فقال : كأنك تريد بالفرد ، فقلت : نعم ، فقال : أنت وزوجتك ودجاجة ، وابناك ودجاجة ، وابنتاك ودجاجة ، وأنا ودجاجتان ، فقلت : لا أرضى بهذه القسمة ، فقال : كأنك تريد شفعا ؟ فقلت : نعم ، فقال : أنت وولداك ودجاجة ، وزوجتك وبنتاها ودجاجة ، وأنا وثلاث دجاجات ، والله لأحول عن هذه القسمة ، قال الأصمعى : فغلبنى مرتين : مرة فى الشعر ، ومرة فى الدجاج ، ثم انصرف انتهى.